Les quatre composantes de l'identité

عناصرالهوية الأربعة

محاضرة ألقيت في 7أ أكتوبر 1990بقسم ألأمراض العقلية لمستشفى بيساتر بباريز

Charles Melman

شارل ملمان

طبيب ومحلل نفساني بباريز. مؤسس ورئيس سابق للجمعية اللاكانية العالمية

أخترت هذا العنوان... لست أدري كيف أسميه. لنقل بأنه عنوان للإفطان بحيث أن الهوية يتم البحث فيهاعادة على مستوى عنصر وحيد يعتقد فيه أنه المميزالفريد لهذا الشخص او ذاك، وأنه العنصر الوحيد الذي يميزني. فلربما اختياري لهذا العنوان "عناصر الهوية الأربعة" مفاده محاولتي إبرازأن الهوية غير مضمنة مسبقا الا أنها في نفس الوقت ثابتة من حيث عناصرهاأكثر مما نعتقد. وبما أننا هنا في جناح الطب العقلي بمستشفى بيساتر، سوف أعمل جاهدا على دعم قولي بامثلة عيادية. فهذه الأخيرة منطلقنا على كل حال وهي الوحيدة التي في وسعها تصديق ما نزعمه وإبانة أننا لسنا بحالمين و لا نحن بصضد بناء نظريات قد تلبي لنا رغبة في حين تتركنا غير قادرين على التحكم في الإشكاليات التي تهمنا والتي من أجلها نقضي جل وقتنا.

بـادئ ذي بدئ، أثير انتباهكم إلى أمر تجريبي بما فيه الكفاية : ذلك أنني كي أحدثكم الأن، لا بـد من إقـتسامكم هوية ما. بصيغة أخرى، لو كانت بيننا "فروقات عظمى" (يجب وضع هذا الـتـعبير بين قوسين لكوننا لا ندري لحد الأن ماذا يعنيه)، فقد يمكنني أن أخاطبكم من محل الأمـر وأقـول لـكـم : "إفعلوا كذا و كذا" ويمكنني أيضا أن أحدثكم من مقام المدرِّس فألقي عـليكم درسا إلا أن هذا ما لاأنوي فعله اليوم. أعني بهذا أنه بإمكاني اعتبارأن الفرق بيننا من الشساعة مايدفعني الى تعليمكم. و يمكنني أيضا، إن كان هذا الفرق أكثر شساعة، أن أعمل على تنجيلكم إلا أن هذا أيضا ليس مقصد قولي.

فـإ ذا مـا تـم افـتـراض أن قولي لكم هذا يتحمل سمة حوار، فإن هذه السمة تتضمن بصفة قـبلية وجودا ضمنيا لهوية ما بيننا او لتجمع يتم البحث عنه عادة ـ وهنا أخطو خطوة اولى ـ في حقل التجمع الشكلي، أي في تواجد أشكال متشابهة إلى حد ما، موصومة على كل حال بـخـصـائـص مـشـتـركـة. فـلـهـذا أجدني مضطرا أثناء حديثي لكم، لإقتسامكم هذا الشكل الـمـشـتـرك الـذي يطفو بيننا والذي، بتعبير آخر، يفرض نفسه علي. قلت بانه يفرض نفسه عـلـي ولـيس هذا قول مجاز ولا قول ذاتي محض. ذلك أني لو كنت هستيرياً فإنني سوف أحس بـهـذا الإجـبـار وكـأنه مهمش لي و محقر، أو قد أظن أنني غير قادرعلى التعرف عن ذاتي من خلال مثيلي بحيث أن الشكل الذي يعرضه علي لا يواتيني ولا يرضيني ولا أجده أنيقا ولا جيدا بـمـا فـيـه الـكفاية. فيمكنني آنذاك أن أصد دعوة كهذه قصد اقتسام الشكل المشترك إلا أن صدي هذا يجعلني أقبع في الرفض لكل تقابل مرآوي.

إن عـرضـي لـلأشـيـاء بهذا الشكل له فائدة أخرى من شأنها أن تبرز لكم ان انخراطي في هذا الـشـكـل الـضـمـنـي المشترك قد يبدو لي حاملا لنوع من الإضطهاد لكوني مضطرا للإنقلاب آخـرا. ذلـك أنـي عـلـى كـل حال، مجبرلإقتسام هذا الشكل المشترك و بالحاصل إحلال نفسي مـوضع الأخروية. وهكذا، فبتكويني لنفسي ككل الناس، فإني أفعل من نفسي آخرا على نفس الـوتـيـرة. ذلـك أن هـذا الأخـر، ذاك الأنـا الـمـثالي الذي تحدث عنه فرويد، سيصبح منذ هذه الوهلة أناي بالفعل. وبمعنى آخر، فها هو هذا الآخر ملء ذاتي. وبما أنني أتحدث معكم، فإن ما يحفزني فهو هذا الآخر عينه بما يتضمنه من خاصية عظامية ملازمة لتماهي الأنا ذاته. سوف لن أحدثكم عن العظام لكونكم تدرون بأنه يكمن في ذلك الإعتقاد الراسخ لدى العظامي بـالـتـواجـد الـدائـم قـيـض مـجـالـه الخاص لهذا الآخر مهدداً ومقلقًا له و مسيئًا به الى حد اغـتصاب الذات ذاتها. لهذا فإن هذه الخاصية العظامية الممهدة لتماهي الأنا، تحظى لدينا بـكـثـيـر من الإهـتـمـام بقدرإقحامها لهذه السمة المَرَضية في صلب تكوين هويتنا. إن هذه الـخاصية تُدخل سمة مَرَضية ستنكشف لنا طوالا من خلال كل الإشكالات المرافقة لها والتي تـعـمـل عـلـى تـرسـيـخها في صلب ذاتنا. ذلك أنني كلما حاولت بلوغ هويتي الأصيلة أو أنايَ الـحـقيقي، أجدني دائما مضطرا للمرور عبر هذه الغيرية الفاعلة فيَ والتي في نفس الوقت تـتـلـفـني عن ذاتي. فهناك ظروف خاصة بالعُظام ينشطر خلالها الأخر الذي يحل بي عن أنايَ

وما يترتب عن ذلك من عواقب لاتخفى عن علمكم.

أود أيـضا أن أجلب انتباهكم تواً لهذه الخاصية الصورية للهوية. ففي العلاقة مع الآخر الذي أشـاطـره هـذا الأنـا او هذا الشكل المشترك، تحصل لامحالة صلة لاتقابلية بيننا، أي بيني و بـين مُخـاطـبـي. فـهذا اللاتقابل هو الذي يجعل الأنا يَزن كمثال ويتواجد إما بجانب أو بآخر. وبـصيغة أخرى، فلابد من هذه المنافسة التي تنتاب معرفة أي من الجانبين يوجد به المثال. فـهـل هو بجانبكم هذا الصباح ام هو بجانبي؟ لست ادري. وعلى كل حال، فإنه من المحتوم و من الـلازم حـدوث هذا اللاتقابل مما يجعلني أدخل مع غيري أو مع مثيلي في تنافس حسود، بل وفي تطالب هذائي.

نـحن هـنـا ـ وأسـتـسـمـح في إبداء هذه الملاحظة ـ بصدد ما يمكن تسميته بالبنية العادية والـسـويـة للبعد الصوري لهويتنا. وإني أحاول أن أبين ذلك في مسار تعليم **لاكان** بالذات. فهذه الهوية الصورية سأحددها لكم في الحين. أقول إنها هوية صورية لأنها مرتبطة بالصورة التي يَلـوح لي بها مجاوري. فمن المحتمل أني أقتسم هذه الصورة المشتركة. أقول من المحتمل، ذلـك أنـه بـإمكاني العيش رافضا إياها ومصدا بهذا الشكل عن الدنيا وعن كل محاورة وتبادل اجـتـمـاعـي أو جـنـسـي أومهني أوما شابه ذلك. فسمة الأنا الصورية هذه تأتي سبقا للإخلال ِبتوقي لهوية أصيلة الكنه. فمن البديهي أن هويتي هذه لو تم اختزالها في هذه الصورة فإنها تصبح عرضة لليونة كبرى تجعلها لامحالة طوعا للظروف وللأحداث العابرة و المحلية والتي تـحـثـنـي عـلى المشاركة في هذه الطائفة أو تلك. فإن هذا أحد العناصر المعتادة لدى الذي َيـقـدم شـاكـيـا بهذه الليونة التي تنتابه وبهذا الطبع الحربائي الذي، إن صح القول، يضطره للإندماج بشكل لآئق بمختلف الجماعات التي يتم انخراطه بها وإن كانت متعارضة جدا فيما بـيـنـها. فههنا منبع آلام الشخص الهستيري الملزَم بإبدال شخصيته، وبشكل خاطف جدا في بـعـض الأحـيـان، حـسـب مـتـطلبات لُقيى هذا الشبيه أم ذاك بحيث أن أي شبيه يطلب من شـبـيهه أن يمده بتصور لذاته مقبول لديه. أي إنه يطلب منه إقامة الإزدواجية التي حدثتكم عـنـهـا قبل حين. فأما إن لم يكن لدينا إلا هذه الهوية الصورية التي تحدثت عنها في الحين، فـإنـنـا نـبـقـى عرضة لنصبح ِحراباً ولا يسعنا إلا أن نفعل كهذه الحيوانات التي تتحلى بلون المكان الذي تقبع به. فنَجد أنفسنا بمثلها نحيى و على واترتها نتحرك وليس غيرُ.

إلا أن هـنـاك عـنـصـرا آخـرا فـي تـكوين الهوية قابلا لإمدادي بهذا المحور وهذا الثبات وهذه الـديـمـومـة وبـهـذه الـصـلابـة الـتـي، إن صـح الـقـول، تـطمئنني على بقائي متعديا طلبات الـمـحـاكـات. وإن مـا يـركـز هـذه الـديـمـومـة فهي تلك العناصر المرتبطة بسيرتي الذاتية، بـأصـولـي، بـأسـرتـي، بـديـانـتي، بتكويني الثقافي وبلقبي. إن لهي عناصر تلعب لامحالة دورا حـاسـمـا فـي هـذا الـصـدد. فـهـذه الهوية التي بإمكانها تحقيق ديمومةَ ذاتي، يمكن إن صح الـقـول، تـسـمـيـتـها هوية رمزية وليست قَط بصورية. وبإيجاز يمكن القول أنها هوية رمزية

نـظـرا لـلـدَّين الـذي يرافق وجودي وعيشتي والذي يرتبط بذنْبي لكوني مَدين دوما ودوما ملزم بـتـسـديـد مـاعـلـي من دَين وذلك مع الإحساس بأنه رغم هذا المسعى فلا هناء للبال. إنه في الـغـالب الإحساس الأكثر انتشارا كما هي عليه متطلبات هذه الهوية الرمزية المفروضة من أجـل إنـجـاز هـذا الإحـساس بالتمام. والأكثر أهمية أيضا هو أن هذه الهوية الرمزية، خلافا لـلـهـويـة الـصورية التي تحدثت عنها سابقا، فإنها قابلة لإثبات هويتي الجنسية. ذلك أنه من خـلالـهـا أجدني بالمرة إما رجلا أم إمرأة حيث أختبر، على كل حال، تموقعي بهذا الجانب أو ذاك، كواجب أو كلزام فوق ـ شعوري. في حين أن الهوية الصورية يمكنها الى حدما أن تنقلب فـخًا أو أسـراً نـتـيـجـة تـاثـيراتهاالإيمائية والجنسِتَبادلية. وإنكم لعالمون بمدى انتشار هذه الـظـاهـرة عـلـى المستوى العيادي. فأما هذه الهوية الرمزية التي أحدثكم عنها تواً والتي قد كـونـتـنـي وعرفتني بنفسي كفتى او فتاة فإنها بالمقابل تفرض علي كنه جنسي وما يلزم علي تـحـقـيـقـه صـوب هذا الأخير، أي كل ما يلزمني تحقيقه كأب أو كأم. إن هذا العامل يتدخل بصفة حساسة في ذاتية كل فرد وأن هذا اللزوم بِمُتجلٍ على هذا المستوى الرمزي.

فـفـي أحـسن الأحـوال، وخصوصا في حالة إحساسنا بطمأنينة نفسية وإن كان هذا من غير الـمـعـتـاد، فإن ذلك يدل عامة على توافق بين الهوية الصورية والهوية الرمزية. فهذا التوافق عـنـدمـا يـحـصـل، يـنـجـم عـنـه هذا الإحساس الذي يدفع البعض ليقول :" إن هذا لشخص مـطـمـئن الـنـفـس، يـعيش في سعادة وارتياح كامل." في حين أن التنافر الذي يحصل بين الـهـويـة الـصـورية والهوية الرمزية والذي يعم زمننا هذا وإن كان ذلك لأسباب ثقافية أو ذات صـلـة بـالـتـهجر...الخ، فإنه عادةً منبعٌ للكدر. ونظرا لكون هذا الكدر معضلة لآ تقتصر على الـفـرد فـحـسـب وإنـما تعم المجتمع ككل، فإني سأتطرق لا محالة اليه ببعض الكلمات في ختام عرضي هذا.

فـهـاهـي ذي ملاحظة ربما قد تقنعكم بأن فحوى قولي ليس نظريا محضاً كما قد يبدو لكم. إنـهـا تـخـص ظـاهـرة نـسـيـان الـهوية والتي قد تم لامحالة توقفكم عندها مرات عدة. فإن الـمـصـابـين بـنـسـيان الهوية يطلعونكم على أن هذا النسيان يمكن أن ينحصر على عنصر مـحـدد من بـين عـنـاصـرالـهـويـة الـتي أعرضها عليكم هنا. بمعنى آ خر، ففي حالة نسيان الـهـويـة، فإن هذا النسيان ينحصر على مستوى الهوية الرمزية. فالشخص في هذه الحالة قـد يـمتلك أناً صوريا سليماً جدا وقد يتوفق غالبا في إقامة علاقة سليمة مع الآخرين إلا أن الـنـسـيـان لـديـه يـنـحـصـرعـلى المعالم الرمزية بكاملهافتراه مراراً يتعمد إجلاء بطاقته الـشـخـصـيـة وكـل وثـائـقـه وتـذاكره وحتى علامة سترته...الخ. آنذك يقدم نفسه هكذا بعد إضاعة كل هذ المعالم.

فـالـهـوية الرمزية هذه تصاب أيضا لدى الفصامي الا انها في هذه الحالة تجر معها سمتها الـصـورية ولهذا تجدون لدى الفصامي ـ وإن كانت الأدوية حاليا، على غرار المخدرات، تمده بـنـوع من الـحـيـويـة ـ تجدون لديه اضطرابات تُنقص من حيويته مما يجعلكم قادرين على

الـتـعرف عن حالـته ولو بالتطلع الى هيأته فقط. أما إذا أصابه خلل في هويته الرمزية، فإن ذلـك وبـدون شك سيلـقى ترجمته على سبيل المثال في هُذاءات النسب التي ترقبونها في مثل هذه الحالات.

هـوية صورية إذن وهوية رمزية كذلك. أهذا كل ما هنالك؟ هل لنا أن نكتفِ بهذا القدر ونعمل بـه وإن كـان يـمـثـل قَطْعـا أدوات أثبتت فيما قبل فعاليتها؟ كلا. ذلك أنه إذا ما قُدر لي، وأنا أحـدثـكـم لـلتو، أن أرتكب هفوة لسان فإنها ستلاحظ لامحالة وتُسمع. الشيء الذي يدفعكم الـى الـتـفـكير بأن مخاطبكم هذا لـه إسم شخصي وله تمثل خاص ثم إنه يستند الى تعاليم مـعـيـنـة وهو الآن بصدد عرض أحدها...الخ. إلا أن هويته الحقة فهي هنا، في هذا الشيء الـبـسيط الذي فضح نفسه من خلاله. فهاهنا تكمن فعلا حقيقةُ ذاته. والقول الحق أنكم لن تـكـونوا على خطإ إن فكرتم بذلك بحيث أن هذا الحدث البئيس في بعض الحالات، إنما هو تـعـبـيـر عن رغبة أو أمنية أو شيء من هذا القبيل أكون قد تعمدتُ إسكاته في هيأتي أو في عـرَضـي فـي حـين أنه ـ حسب التعبير المعتاد ـ أبى إلا أن يبرز أنفه . مفاد هذا الحدث إذن هـو أن يـبـدي لكم هويتي من حيث هي هوية راغب ذي رغبات تتعدى فحوى قوله. فبالنسبة لـلـمـتـحـدِّث، كـمـا هـو الـحال بالنسبة لمخاطبه، فإن التعرف على رغباته إما أنه في غير مـتناوله دوما وإما أنه يرفضه بتاتا. فلفترض أن هفوة لساني هاته تنم عن أمنية قتل تجاه شـخـصية جليلة أو تجاه الأب مثلا. فمن البديهي أن السيرة العادية للمتحدِّث تستدعي منه إبـعـاد هـذه الأمـنـية بل وحتى رفضها ونفيها. أليس كذلك؟ إنه يمكن سماع هذه الهفوة من حيث هي حاملة لحقيقة ذاتيةٍ وإن كان ذاك الذي فاه بها غير قادر على التعرف عليها ما لم يعترف هو ذاته بنفسه كحامل لأمنية قتل تجاه شخص عزيز لديه.

إن الـشـخـص يـمـكـنه طمس معالم هويته الصورية ثم إنه بإ مكانه محاولة نسيان هويته الـرمـزيـة مـهـاجرا الى بلاد أجنبية، تاركا وراءه أصله وثقافته ولغته...الخ. إن هذه لظواهر أصـبـحـت الـيم جد متفشية. إلا أن هذه الهوية المعبرة عن تلك الرغبة المنبثقة من صلبه فـلـن يـمـكـنـه بـتـاتـا تـركـهـا خلف أية حدود ولا أي نسيان. إنه ينقلها معه حتما أينما حل وارتـحـل، فـتـبقى به كشاهد عيان يفشي عليه سره وما هو عليه بحول ولا قوة. لذا فإن أكبر عـنـصـر مـؤسـس لـلـهـويـة يمكن البحث عنه من جهة هذه الظاهرة الأكثر بساطة والأشد اقتضابا والتي بمثيلتها، كما تعلمون، يهتم المحللون النفسانيون. إن هذا والحق يقال، شيئ فـطن بـه الـفـلاسفة قبلنا منذ زمن، مما دفع ببعضهم كسْبينوزا مثلا ليخُط وبكل طمأنينة بـأن الـرغبة هي كنه الإنسان. فالرغبة عنده هي ما يميز الإنسان وليست الحكمة او الضحك أو الـثـقـافة أو ماشبه ذلك. إن هذه لملاحظة من القوة بمكان بحيث أن الرغبة لدى الإنسان بـقيت تُعتبر حتى هذه الأونة شبيهة للرغبة لدى الحيوان، وهي بذلك تمثل القسط الحيواني لدى كل فرد. فإعلاء هذا القسط من طرف فيلسوف الى مكانة عامل أساسي للإنسانية لجدير بكل تقدير.

إنـنـي مـازلـت، كـمـا ترون، بصضد تناول الخاصية الثالثة للهوية وإن كنت قد وعدتكم أربعا طـبـقـا لعنوان محاضرتي هذه. فما هو ياترى عنصر الهوية الرابع هذا وما قيمته؟ إنه حقا مـعـقـود تـمـاما بالعنصرالسابق ولكن يستحق فصله كعنصر رابع. فعنصر هويتي الرابع هو عَرَضـي الـعـصـابي بالذات. إنه مكون لهويتي بحيث لامناص لي منه. إنه يتبعني ويصاحبني أيـنما سرت ولا يمكنني تركه خلف باب هذه القاعة. إنه طبعا لآسق بالعنصر السابق ذلك أنه عـادة مـا يـنـبـنـي كـصـد للرغبة. فالعرض إذن هو ذاك العنصر الذي يُديم الرغبة لدي ولكن كـرغـبـة أصـدهـا ولاأتقبلها. إنه يحولها بطريقة تجعلها تتجلى لدي بواسطته وذلك لأسباب يبقى استجلاؤها مستعص علي.

إن الـرغـبـة إذا مـا تـجـووزت خـصـوصـيـتـها، شُبهت بالرغبات العامة والمشتركة. ذلك أن الـهـوامـات الـتـي تـنظم الرغبة تمتلك صفة كونها أكثر اقتساما وعمومية مما يجعلها من أكـبـر مـعالم التواصل بيننا. إن الرغبة في عالم حضاري معين، تسري لدى جماهيره بوجه شـبـيـه الى حد ما ومن خلال هوامات متجانسة. وإنكم لتعلمون بأن الإبتكار بشأن الهوامات هـو من الـضـآلـة بـمـكـان. فـذلـك مـا اصـطـدم بـه الـمؤلفون في مجال الكتابات الجنسية. فـالـهـوامـات لا يـمـكن الإبتداع فيها بهذه البساطة ثم إنها سرعان ما تنقلب سلوكات فجة. فـهـذه الـصـفـة هـي من إحـدى غـرائـب تـكويننا ذلك أن رغبتنا ليست فقط فجة من حيث تكوينها وإنما هي شبيهة لرغبات كل الناس.

أمـا الـعـرض، خلافا لما سبق، فهو العلامة الفردية، بل إنه الدلا لة الخاصة حقا. طبعا، قد يـمـكن شـده الـى إحـدى الـفـئـات الـمَرضية الكبرى إلا أنه يبقى مع ذلك محتفظا بالعنصر الإنـفـرادي الـذي يـمـيزه، مما يجعل عَرضا كهذا يخصني أنا بعيني وليس غيري. إن هذا ما يـحـيـل بـتـاتـا عـلـى الـمحلل النفسي إمكانية تحليل مرضاه بالجملة إن صح التعبير. فلن يـمـكـنـه ذلـك وإن سُـمـح لـه تـصنيف هؤلاء المرضى في هذه الغئة المَرضية أو تلك. بل إنه مـضـطـر كـل مـرة عـلـى مـعاملة كل مريض بكونه حالة فريدة فعلا وذلك بفعل خصوصية الـعـرض الـعـصـابي لدى كل فرد. فالعرض هو ذاك الإبتكار الشخصي الذي يستلزم استقبالا خـاصـا جـدا ويتطلب ردا جد فريد. فمن خصائص هذا العرض أن يؤدي إلى ما سماه فرويد بـآلـيـة التكرار، ذلك أن وجودي ليس سوي المسار، إما صاعدا أو هابطا وإنما هو على وتيرة دوريـة عـكـس مـا جـرى بـه الإعـتقاد. إنه عبارة عن تكرار دورات وما هذه الدورات إلا إعادة لأنـمـاط الإخـفاق الذي ينظمه عَرضي. إن هذه لسمة جد مهمة في تكوين ذاتيتنا مما يدعو لأخـذهـا بـعـين الإعتبار. ففي مجال كهذا يلزمنا التخلي عن مفهومي الماضي و المستقبل، ذلـك أن الـمحللين النفسانيين، حسب اعتقادي، يختبرون دوما بأن لاماضي هناك ولامستقبل عـنـد حـلـول الـعـرض وقـت تـكوين الهوام البدئي وذلك منذ عمر جد مبكر، أي حوالي السنة والـنـصف والسنتين. فليس هناك إذن من ماض لأن ما حدث سابقا لم يكن منظما بعد وليس هـنـاك أيـضـا من مـسـتـقـبـل لأن كـل مـا سـيحصل للفرد فهو منضوٍ سبقا في إطار الآلية المضبوطة بهذا الهوام البدئي. الشيء الذي يجعل دور الزمن ينحصر في إتمام هذه الدورات

الـمـخـتـلـفة الطول والقصر. فإني لاأعتقد من اللازم إثارة انتباهكم الى كون الحياة بصفة عـامـة، بـجانبيها العاطفي والمهني، نموجا لهذه القبولية ولهذا النمط من التوزيع. ويمكننا حقا التأسف لكوننا معوجين الى حد يجعل نمط التوزيع هذا يسيطر علينا بهذة الشاكلة.

وفـي هـذا الـصـضد، غالبا ما أثير انتباه اللذين ألفوا الإستماع إلي، إلى هذا الشيئ الذي قد يـبـدو تـافـهـا جـدا وهـو كـالـتلي : فحتى لدى المتحللين المسنين، يلاحظ دوما ان علاقتهم الـمـاضـيـة بـبـابـاهـم وماماهم تستمر، رغم تقدمهم في السن، في تسيير كل اهتماماتهم الحالية، العاطفية منها أو المهنية الخ. إن التوقف على شيئ من هذا القبيل لهُوَ لنا لامحالة بـصـادم، ذلـك أن هذه العلاقة هي مرجعنا الأخير وهي الوتد الذي نحن إليه مشدودون والذي حـولـه لانـلـبـس نـدور بحيث ان كل ما يمكن وقوعه فهو بالضرورة وليد وسجين هذه العلاقة الأولية التي تشكل الخطاطة الثابتة لوجودنا.

أعتقد أن هذا التذكير - بما أنني أتصدى للعَرض كخاصية رابعة للهوية التي نتحدث عنها - مـفـاده إبـراز أن الـشـيء الأصـلـب في هويتنا هو من جانب العرض أكثر مما هو من جانب الـرغـبـة. ذلـك أنـه إذا مـا تـنصل مني عرضي لحظة ما لسبب طارئ، فقد ينتابني إحساس بـفـقدان شخصيتي وبانعدام القدرة على تعرفي بنفسي. فذلك ما قد يحدثه تناول المخدرات الـمـخـتـلـفـة والـذي يؤدي الى هذا الإنطفاء اللحظي للعرض وما ينجم عن ذلك من عواقب متوقعة.

إن الـمـحـلـلـين الـنفسانيين، على كل حال، في اعتناء بالغ بهذه الهوية التي يثبتها العرض لـديـنـا والتي تجعلنا مع مرور الزمن ثقالا الى حد ما. فها هو أهلنا بعد مدة قد خبر كل شيئ عنا، فأصبح يتوقع سلوكنا وما ننوي قوله أو ما نحس به. فعلى هذه الشاكلة نحن مطبوعون مـمـا قد يجعل الشخص نفسه في ضجع لما يتحمله من سلوكات متجمدة سبق لي ذكرها. فـها أنتم ترون كيف نتضحرج بين ما يمكن تسميته بهوية مكتسبة، ثابتة و مركزة من جهة وهـذا الإحساس بالضجع والثقل الناجم عن هذه الهوية المٌقولبة والتي يمكن تسميتها أيضا بـالطبع المكون من تلك السبل التي ينهجها الفرد لامحالة للتصرف حسب الظروف. فهذا ما يـدعـو الى القول عادة : "طبع فلان غير خاف عنا" إذ من المتوقع منه أن يصرخ أو ينزوي أو يبتهج أو يحتج...الخ.

فـإذن، وهـذا ما أريد أن أختم به كلامي، بما أنكم تعلمون بأن المحللين النفسانيين متهمون بـحصر عطائهم على مستوى النظري، أود محاولة إبراز إلى أي حد تكون هذه العناصر التي أعرضها عليكم متطابقة مع الظواهر التي نلاحظها بالفعل. يعني هذا أن استجلاء ما نعاين وقـوعـه لـيـس هـو بـمـحـض تنظير. إن قضية الهوية مسألة تُطرح بالفعل ليس فقط على مـسـتوى المستشفى أو العيادة وإنما على الصعيد المجتمعي ككل، ذلك أن القلق والإنزعاج بـخصوص الهوية يتمظهر أيضا على مستوى تفجرات مجتمعية. وليس من المبالغة القول

ان هـذه الـمـشـاكـل الإجتماعية تنجم عن ظواهر قريبة العهد (حيث نشأت مع بداية القرن الـمـنـصـرم) ومـرتـبطة بالتهجر وتداخل الثقافات. فالهجرات الكبرى بدأت مع بداية القرن العشرين خصوصا في الولايات المتحدة ونفس الشيء حصل عندنا هنا.

فـإذا مـا حـاولـنـا اسـتـعـمال هذه الأدوات التي عرضتها عليكم، يمكننا التفكير بأن التوتر الـنـاجـم عن هـذه الـهـجـرات وتداخل الثقافات مرتبط بالإرتياب فيما يخص صمود الهوية الـرمـزيـة. وهـذا الأرتـيـاب الناتج عن ظاهرة الهجرة، لايمس فقط من يهمهم الأمر، وإنما أيـضـا أولائـك الذين يستقبلونهم. فبخصوص هذه المسائل يجب التحلي بالوضوح واجتناب الـتـسرع بتفوهات جازفة فإن هذا لمناقض لمراسنا كأطباء. فكأطباء نحن عياديون وعملنا يقتصر على محاولتنا قول الأشياء كما هي وإن كانت لا تروق للمستمع.

فـإنـه لـمن الـبـديهي أن يتم المساس بهويتي الصورية إذا ما تم إدخال عقر دربي أو بيتي أو بـلـدتـي صور غير مألوفة لدي، وأما إذا ماأصبحت اللغة المتداولة والعادات المعروضة علي تـخـتلف عما ألفته، فقد يحصل إحساس مشترك بالشك في ركيزة الهوية الرمزية وذلك لدى كل من المهاجر ومن يستقبله. بخصوص هذا الأخير لم أتمكن من استحضار مفهوم مقابل وأمـا إن لم يكن موجودا بعد فابتكاره لازم. إذن، فإن هذا التشكك بخصوص الهوية الصورية يـمـس لامـحـالـة بـالـقـيـم الـتي أشرت قبلا إلى كونها مؤسِسة للهوية الرمزية والتي ترتبط بـالتاريخ وبالعشيرة وبالديانة...الخ. إنها قيم يمكن تقديرها مقدسة لزاما بحيث أن زعزعتنا لها يؤدي حتما الى عواقب مقابلة. فهذه ظاهرة يجب عدم اعتبارها مَرضية، بل إنها ظاهرة عـايـة نـظـرا لـلـشـاكـلة التي نحن من خلالها مكَونون. أعتقد أنه يجب تعريفها أولا بكونها ظـاهـرة عـضـوية وبعد ذلك يمكن أن نقَدرها كما نحب. فلنا الحق في تقييمها كما نشاء إلا انه يلزم اعتبارها كظاهرة طبيعية لأنها هكذا وليس غير.

وقـد يـسـعـنا أن نخطو خطوة أخرى من شأنها تحليل المشكل من جانب الشاب المهاجر إذ سـبـق لـي الـقـول بـأن هـذه المشاكل تتمظهر حتى على الصعيد الإجتماعي. فغالبا ما يجد الـشـاب الـمـهـاجـر نفسه مضطرا للتنكر لثقافته الأصلية وذلك ليس بمحض إرادته وإنما لـكون هذه الثقافة في حالة تهميش بمعنى أنه لم يعُد لها من تأثير على الواقع. فليست هي الـتـي تـؤطـر الـمـنـاظـر الـطـبـيـعـيـة أو الأثـار أو الـعـمران أو الملبس أو سبل التداول أو الـمـاكـل...الـخ. بل والأجدى من ذلك، وهذا شيء مهم لدينا، فإن هذه الثقافة ليست هي التي تـمـده بـمـيزة التماهي إذ لم يعد بإمكانه اعتبار ثقافته كمصدرلهويته كرجل أو امرأة وذلك لـيس فقط كي يتم التعرف على جنسه من طرف آخرين منتمين الى ثقافة مغايرة وإنما كي يـتـم الـتـعرف عليه من داخل ثقافته كونه منضوٍ تحت هذا الجنس أو ذاك. انطلاقا من هذا فـإن من يـقـف على إخفاق ثقافته في الإمساك بالواقع فإنه يقرأ في ذلك دعوة للتنكر لها بل والـرمـي بـهـا. إن الـمـسـألـة تـخـتلف بالنسبة للنساء. وبما أني لست مريدا للأنساق في هذا الـمـوضـوع، يـمـكـنني القول باختصار أن للنساء تلك السهولة التي تميزهن والتي تسمح لنا

القول بأنهن ينتمين لثقافة عالمية بحيث يمكن التعرف بهن كنساء في كل مكان بغض النظر عن ثقافة منبعهن. إن هذا لموضوع سأتركه جانبا لكوني بالتطرق إليه سأكون مدعوا في الخوض في موضوع أخر.

إنني هنا أود فقط أن اثير انتباهكم الى هذا الحدث الآلي والمنفصل عن إرادة الفرد. فإن هذا الأخير إذا ما تبين أن ثقافته لا تحظى برتبة الهيمنة فإنه من غير الممكن له الإتكاء عليها لتقدير ذاته لدى الآخرين أو حتى تَقَبل هذه الأخيرة لديه بالذات. وهذا قول صحيح حتى داخل إطارثقافة الفرد بحيث أن الحياة الزوجية في هذه الثقافة المهمشة يصبح عرضة لتوترات شتى: فإما أن الزوجة مثلا تجد نفسها مضطرة دوما لفضح زوجها لما قد تلحظه من فتور ذكوري لديه، وإما أن الزوج تعتلي صوب زوجته إما منصب المطالبة متهما إياها عدم إعطائه مايطلب وعدم السماح له بما يمكنه التعرف على نفسه كرجل فحل، وإما موقع الغيرة العظامية مفتريا اهتمامها بالرجال الأخرين الأكثر منه حقيقة. مهذا هو الجانب الأول لمشكلة أساسية. أما المشكل الثاني فإنه يتعلق بمسألة قبول أو عدم قبول هذا الشاب المهاجر من قِبل الثقافة المتبنية له. إنه يتعلق بقضية الإعتراف به كشبيه أم لآ. في هذا الباب أيضا نكون خاطئين إن اعتبرنا هذا الحدث هو محض رفض مَرضي. ذلك أن المحرك في هذا الصوب لا يمكن اختزاله في سوء نية الناس أو في مستواهم الثقافي أو ما شابه ذلك. إن المحرك الفعلي فهو اللغة وما تدرجه من كلمات تحمل قيما. ففي لغة سائدة، عندما يتم التوقف على ألفاظ تخص الثقافة و الأصل وما تحمله هذه الألفاظ من تحقير ورفض للأخر، فإن ظاهرة الإبعاد والتهميش تحدث لامحالة. إنها ظاهرة لايمكن صدها بأي قانون يمكن تبنيه ذلك لأنها ظاهرة منقوشة في صلب اللغة. وعلى كل فإن هذه الظاهرة جد فعالة في مجالنا الثقافي، في بلدنا وفي لغتنا التي تبدي حرصا، كما يقال، على صفائها خلافا للغات أخرى.

فهذا معطى أولي ويجب البدأ باعتباره كذلك عوض المضي سبقا في تفريغ مشاعرنا نحوه، الطيب منها والخسيء. هذي هي خاتمتي على كل حال. فإن هذا الشاب الغير متمكن بالتعرف على هويته الجنسية لا في ثقافته الأصلية ولا في ثقافة التبني، يجد نفسه عرضة لإحباط قوي وأساسي لآ يفسح مجالا الآ الى ما نسميه بالأفعال التدميرية وبالخصوص الى استعمال العنف قصد نشل ما صُد عنه قصرا من طرف هذا القبيل أو ذاك. نحن هنا بصضد الجنوح وإلا فهناك مخرج أخير لم أسجله في أوراقي لما يحظى به عندي من ضعف المحبة. إن هذا المخرج ينحصر في الإنجراط في هذه الظاهرة الإجتماعية المتفشية في وقتنا الحاضر والمسماة بالتمامية intégrisme بشتى أنواعها. إنها تعني التأكيد الشديد والعنيف على الهوية الرمزية وفي نفس الوقت على الهوية الصورية والثقافية مع ما ينجم عن ذلك من منازعة بل ونفي للثقافات الأخرى.

فكما ترون، إنني حاولت عبور هذا المسرى أمامكم وتبرير مكونات الهوية الأربع بما فيها

الـصـورية والرمزية والواقعية والعرَضية ثم إني حاولت إبراز العواقب المترتبة عن ذلك على مستوى الفرد أو المجتمع. إلا أن ما قدمته قد يبدو صعبا أو قد لا يجيب مباشرة على أسئلة كـل مـنـكـم حـول هـذا الـمـوضـوع. فمن الطبيعي أن تحتفظ أسئلة كل واحد منا بصيغتها الإنفرادية. أما أنا فقد حاولت التعبير بصفة عامة جدا فافترضت لكم أنا جمعيا وهذا خطأ طـبـعا. آمل على كل أنكم لم تجدوا في قولي اهتماما تربويا مبالغا فيه قد جعلني اعتبرتكم جـهـلاء و يـخصكم التفقه بعلمي. فكيف ما كانت قيمة مضمون عرضي أتمنى أن تعتبروها أدنى مما أريد به لأسلوب تعبيري.

Traduction : Abdelhadi Elfakir

ترجمة عبد الهادي الفقير

Psychanalyste, Maîtr de conférences en psychopathologie clinique à l'université de Brest

محلل نفساني وأستاذ محاضر في علم النفس المرضي، جامعة بريست - فرنسا